الهشاشة الحضرية والأمن في إفريقيا جنوب الصحراء

د. آدم بمبا

أكاديمي وباحث - كوت ديفوار - أكاديمية الدراسات الإسلامية - جامعة مالايا، ماليزيا

تحتلُّ ظاهرة تنامي المدن والمجتمعات الحضرية حول العالم، وخاصةً في إفريقيا، حيزاً واسعاً من البحث والدراسة في شتَّى مجالات العلوم الإنسانية، ومن الموضوعات المحورية في تلك الدراسات: «هشاشة المدن»، وهي عجز المدينة عن الوفاء بالحاجات الضرورية التي تتطلَّبها الحياة الحضرية، وكذلك عجزها عن حماية سكانها ضدَّ التهديدات المختلفة التي تُحدِثُها الحياة الحضرية.

من هـــذا المنطلق؛ فإن المقـــال الحالي محاولةٌ لســـبر واقع المدينة الإفريقية الحديثة، وعلاقة هذا الواقع بصُوَر الأمن الحضـــري، وذلك عبر اتباع منهج وصفي تحليلي لبعض الإحصاءات والتقارير والبحوث المتوفـــرة في هذا المجال. عليه؛ أمكن تحديد ســـبع خصائـــص مميزة للمدينـــة الإفريقية؛ هـــي عناصر مغذِّية لهشاشتها، وتحديد سبعة مجالات أخرى للأمن الحضري يُمثل النجاح أو الإخفاق في توفيرها مقياساً لمدى هشاشة المدينة أو صمودها وقوتها.

مقدمة: هشاشة المدن.. المفهوم والإشكال:

لا شـــكَّ في أن العالَم بأسْره يشـــهد نمواً مطرداً للمدن والمجتمعات الحضرية على جميع المستويات، على ســـبيل المثال: كانت نسبة سكان الحضر عالمياً في حقبة ١٨٠٠م، لا تتجاوز (٢٪)، أما في عام ٢٠٢٠م فإن هذه النسبة قد ارتفعت إلى حوالي (٥٦,٢٪)، ومن المتوقع أن يتواصل ارتفاع هذه النســـبة إلى أكثر من (٦٧٪) بحلول ٢٠٥٠م[١].

بالمثل؛ تؤكد الإحصاءات بإفريقيا جنوب الصحراء ارتفاع مؤشرات المدن، فطبقاً لإحصاءات عام ٢٠١٧م فإن أكثر من (٤٨٪) مـــن المجتمعات الإفريقية تعيش في المدن؛ مقارنةً بنسبة (٣٣٪) في أمريكا اللاتينية، و(٣٨٪) في آسيا[٢].

أمرٌ آخر؛ هـــو أن المدينة الإفريقية هي أســـرعُ نمواً من غيرها؛ حيث إن نســـبة النمو السنوي للمدينة الإفريقية هـــي (٤,١٪)، وتلك ضعف المعدَّل العالمي (٢,٠٪)[٣]. وبحلـــول عام ٢٠٥٠م ســـوف تبلغ نســـبة المجتمعـــات الحضرية بإفريقيا أكثـــر من (٥٦٪).[٤] وتُعدُّ مدينتان إفريقيتان ضمن المدن العشـــر الأسرع نُمواً في السكان في العالم، وهما: دار السلام (تنزانيا) وكينشاســـا (كونغو)[٥]. كما أن بها ســـبع مدن عملاقة mega-cities، وهي: لاغوس، والقاهرة، وكينشاســـا، وجوهانســـبرغ، وبريتوريا، ونيروبـــي، والخرطوم. كما يتوقَّع أن تتحول مدنٌ أخـــرى إلى هذه الفئة، أي مدن عملاقة (بعشـــرة ملايين نسمة فأكثر)، في حدود عام ٢٠٣٥، منها: دار السلام في تنزانيا، ولُوَانْدا (أنغولا)[٦].

إن هذا التنامي المتســـارع للمجتمعات الحضرية حـــول العالم، وفي إفريقيا، قد أثـــار اهتمام الباحثين في شـــتَّى مجالات العلوم الإنسانية، وأصحاب القرار، ســـواء في البعد الأنثروبولوجي، أم في بُعْد الجغرافيا البشرية، أم المعماري، أم البعد الاجتماعي والثقافي. ويتمثل ذلك في إنشاء المؤسسات والمنظمات العالمية الكثيرة المعنية بالمدن، وفي وجود البرامج والمشاريع الدوليـــة والإقليميـــة والوطنية، ورصـــد الميزانيات الضخمـــة لبرامج تطويـــر المدن. ولعل أشـــهر تلك المنظمات: وكالة الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية UN Habitat، وبرنامـــج جَعْـــل المـــدن قادرة على الصمود Making Cities Resilient ٢٠٣٠.

هذا، وإن الاهتمام العالمي بالمدن نابعٌ من حقيقةٍ مقرونة بالحضر، وهي أن نمو المدن يجلب في الوقت نفســـه كثيراً من التحديات، ويُعرّض سكانها لمخاطر متعدِّدة: بيئية واجتماعية، منها ما هو طبيعي، ومنها ما

(١) Andrey, J.; Jones, B. The dynamic nature of social disadvantage. Can. Geogr. 2008, 1, 146–168.

(٢) David Dodman et al. 2017. "African Urbanization and Urbanism", ELSEVIER, Int. Journal of Disaster Risk Reduction, No.26, 8.

(٣) Alexandre Zerbo et al. 2020. Vulnerability and everyday health risks of urban informan settlements in SSA", Global Health Journal, Vol. 4:2, 47.

(٤) UNCTAD. 2018. 'Economic Development in Africa Report'. Available at: https://unctad.org/en/

(٥) Chapman, R.A. & Sasman, N.2012. Cities and climate change: urban vulnerability and resilience in southern Africa, 2.

(٦) UN Habitat. 2020. Breaking Cycles of Risk Accumulation in African cities, 13.

هو ناشئٌ عن آثار التجمُّع البشري.

في هذا السياق؛ وُجِد أن المدن والميتروبوليات بإفريقيا جنوب الصحراء الكبرى هي في أضعف وضع لمواجهة التهديدات والتحديات المصاحبة للنُّمو المطَّرد للمدن، وذلك لتدنِّي التجهيزات والاستعدادات لديها للانسجام مع التهديدات البيئية والاجتماعية المتجددة في المدن، كالأمراض المُعْدية، وحوادث الطُّرقات، وحرائق الأسواق الشعبية الكبرى، أو حرائق الأحياء الشعبية، والفيضانات، والانهيارات الأرضية[١]... كلُّ ذلك يمثل تحدياً واقعاً لمعظم المدن الإفريقية، وبخاصّةٍ المدن الكبرى الواقعة على سواحل المحيط.

من هنا؛ يأتي مفهوم «الهشاشة» fragility، وهو مصطلح شاع في الدراسات الحديثة، مضافاً إما إلى الدولي، وإما إلى المدن، فيقال: دولة هشَّة أو فاشلة Fragile/Failed State، أو مدينة هشَّة.

وهشاشة الدولة بتعريف منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD، هي: «تلك الدولة التي لديها قدرة ضعيفة على القيام بالوظائف الرئيسية للحكم الرشيد»[٢]، مثل: توفير الأمن والاستقرار للشعب، وجودة الرعاية الصحية، وتوفير المياه النقية، والصرف الصحي، وخدمات الاتصالات، وتعبيد الطُّرق وتوفير المواصلات، والحدِّ من معدَّلات الجريمة، ومحو الأمية.

ولا يخرج مفهوم «هشاشة المدن» عن هذا المفهوم؛ إذ المدينة الهشَّة Fragile City هي التي لا تصمد في وجه الكوارث والأزمات، وتقصر دون توفير الخدمات الاقتصادية والصحية والاجتماعية، وغيرها من الحاجات الضرورية لسُكنى المدن.

(١) David Dodman Op., Cit., 7- 15.

(٢) States of Fragility 2015: A New Approach to Fragility, http://www.oecd.org/dac/governance-peace/ conflictandfragility/rf.htm

وهنا يَرِدُ مصطلحٌ آخر مهمٌّ مقابل للهشاشة، وهو «صمود المدينة» City Resilience، والمراد به احتواء المدينة على البنى التحتية التي تجعلها قادرةً على الوقوف في وجه الضغوط الديموغرافية، وفي النجاح في التخفيف من وطأة الكوارث الطبيعية، والظُّروف البيئية، ونقص الغذاء والمياه، وفي القضاء على العنف الطائفي أو الديني... وتكيفها بما يطرأ من تحدّيات[٣].

هذا، ولهشاشة المدن الإفريقية درجاتٌ وأشكالٌ كثيرة تتدرَّج من العجز عن مواجهة الإشكالات الطفيفة اليومية إلى التهديدات الخطيرة للمجتمع. كما أن أسبابها تتولَّى مسؤوليتها جهاتٌ عدَّة وظروفٌ كثيرة متقاطعة؛ بدءاً بالتخطيط المادي الضعيف للمدن، فالتشكيل الاجتماعي، فالحالة الاقتصادية، فالبيئة الطبيعية، فالسياسة الإدارية لتلك المدن.. كلُّ تلك الظُّروف مسؤولةٌ عن حالة الهشاشة بالمدينة الإفريقية.

من هذا المنطلق؛ تأتي هذه الورقة محاولةً لسَبْر واقع المدينة والمجتمع الحضري بإفريقيا جنوب الصحراء بتحدياتها والفرص المتاحة لها، ومدى تأثير واقع المدن على الأمن بأشكاله ومستوياته المتعددة، كلُّ ذلك عبر البحوث والتقارير المستفيضة في دراسات الحواضر، وستكون معالجة هذا الموضوع في محوَرَين أساسيْن، هما: تشخيص لواقع المدينة الإفريقية، والهشاشة والأمن الحضري في ظلّ المدينة الإفريقية.

المحور الأول: تشخيصٌ لواقع المدينة الإفريقية:

للمدينة الإفريقية خصائص عدَّة جعلتها أكثر عُرضةً للهشاشة وتداعياتها، إن المعرفة الجيدة بطبيعة تلك الخصائص لَهِي الخطوة الأولى لوضع

(٣) السيد علي أبو فرحة، «الدولة الهشة في إفريقيا»، مجلة قراءات إفريقية، عدد٢٧، يناير ٢٠١٦م، ص٣٠.

حلولٍ ناجعة لمشكلة هشاشة المدينة الإفريقية.

١) المدن الإفريقية هي مدن فتية تاريخياً وديموغرافياً:

على الرغم من وجود مدنٍ إفريقية قديمة جاوزت أعمارها ألف عام أو قاربتْ، كمدينة جيني وتمبكتو وكانو، فإن المدن الإفريقية تتميز بأنها مدنٌ حديثة الإنشاء لا تزيد أعمار معظمها عن قرنٍ من الزمن؛ حيث إن معظم تلك المدن قد أُنشئت في حقبة الاستعمار، أي من أواخر القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين، ففي تلك الفترة ارتفعت نسبة التمدن بإفريقيا من (٤,٨٪) عام ١٩٢٠م، إلى (١٤,٢٪) عام ١٩٦٠م[١]، وظهرت مدنٌ كثيرة مثل: بماكو، وكوناكري، وفريتاوْن، وأبيدجان، وأكْرا، وكامْبالا، ونيروبي، ولوساكا؛ لذلك توصَفُ عادةً بأنها مدن ما بعد عصر الكولونيالية Post-Colonial Urbanism.

كذلك؛ فإنها ديموغرافياً فتية، فالأطفال ما دون الخامسة عشرة من العمر يشكِّلون حوالي (٤١٪) من تعداد السكان، والشباب من فئة ١٥-٢٤ عاماً يُشكِّلون حوالي (١٩٪)، وهذا مؤشرٌ يفوق المؤشر العالمي. ولهذا الارتفاع في نسبة الشباب من السكان تبعاتُه الاجتماعية، وعلاقاته المباشرة بهشاشة المدن؛ حيث يكون الأطفال والشباب معرَّضين جسدياً ونفسياً لتحديات المدن، كظهور أطفال الشوارع، وعمل الأطفال في المصانع، وتعرُّضهم للانتهاكات المختلفة. كما توجد علاقة مباشرة بين هذه الفئة المعرَّضة للفقر والحرمان، وبين تغذية الحروب الأهلية في إفريقيا[٢].

أيضاً؛ فإن لاختلاف الجنس مكانةً معتبرة في النظر إلى هشاشة المدن، فالنساء يشكلن تقريباً نصف السكان في الحواضر الإفريقية، وعليهنّ تقع مسؤولياتٌ إضافية، خاصَّةً في العناية بالبيت من إعدادٍ للوجبات، وتوفيرٍ لمياه الشُّرب، وتلك مصادر صعبة الوجود في المدن، فضلاً عن خروج الكثير من ربَّات البيوت للبيع في الأسواق الشعبية، والعمل المُضني في المصانع؛ لكونهنَّ المُعيل الأساسي والكاسب الوحيد للأسرة. إن هذا الوضع للمرأة يضيف مزيداً من التحدي على المدينة الإفريقية وفي قابليتها للهشاشة؛ حيث تغدو أكثر عرضةً للتوتُّر وللمشكلات النفسية والجسدية، فهي تتعرَّض للعنف والتعدي مرَّتين أكثر من الرجل، مع أنها تحظى بأقلّ عنايةٍ صحية من الرجل[٣].

٢) عدم التكافؤ بين النمو السكاني في المدن وبين البنية التحتية:

المدينة الإفريقية في تطورٍ ديموغرافي وجغرافي مطرد، ومن المتوقع أن تصل زيادة نسبة الارتفاع في تغطية المساحات الأرضية التي ستحتلُّها المدن في إفريقيا جنوب الصحراء فيما بين ٢٠٠٠-٢٠٥٠م، لأكثر من (١٢٪)، غير أن هذه الزيادة المفرطة لا توازيها مشاريع تطويرية شاملة في البنى التحتية[٤]؛ إذ إن معظم المدن الإفريقية لا تزال في تراجُعٍ ملحوظٍ في مؤشرات النمو وتحسين أحوال سكانها: في مستوى الخدمات، والحصول على المياه النقية، ومساكن صحية...[٥].

وهذا التخلُّف في طبيعة البنى التحتية للمدينة الإفريقية عن النمو السكاني بها يصل في بعض الحالات إلى ثلاثين سنة، على الرغم من وضع برامج عالمية وإقليمية لمواجهة التحديات المختلفة، مثل برنامج «أهداف التطوير الألفية» Millennium Dev Goals, Intl. Drinking Water Decade، والبرنامج العالمي لعقد المياه النقية،

(١) Bill Freund. 2007. the African City: A History. Cambridge Unv. Press, 65.

(٢) UNDESA. 2015. in: David Dudson, Op. Cit., 10.

(٣) UN-HABITAT, The State of The World's Cities London, 204. in: Dudson, 10 .07/2006.

(٤) David Dudson, Op. Cit., 8.

(٥) Ibid., 9.

وغيرها من الخطط المشتركة.

٣) ضعف التوافق بين التحضُّر وبين التصنيع:

إن الغالب في العالم أن يتوازى تحول المجتمعات الريفيـــة إلى حضرية مع تنامي الصناعة. بمعنى آخر: إن ظهور المدن الكبرى في أي مجتمع مؤشـــرٌ لمزيدٍ من تحول هذا المجتمع نحو الصناعة، وتحسُّن معيشةً أفراده.

أما فـــي إفريقيا؛ فالغالب عدم التوافق بين هذين المتغيرَيـــن، فالزيادة في نســـبة الحضـــر بإفريقيا لا توازيها زيـــادة في الناتج القومي، أو الدخل الفردي[١]، إن المدينة الإفريقية بحســـب تعبيـــر بعض الباحثين: «طفيليـــة» parasitic cities، وليســـت «إنتاجيـــة» generative[٢].

ومن الأســـباب التي أدَّت إلى هـــذه المفارقة بين توســـيع المدينة الإفريقية، وبين مشـــاركتها في دفع عجلـــة الصناعة، كـــون معظم البـــلاد الإفريقية دُولاً ذات اعتمـــادٍ كلي على اســـتخراج المـــوارد الطبيعية Resource-extracting Countries، مثل أنغولا ونيجيريا، فالمدن فـــي تلك الدول عادةً تظهر وتتطور وتتوسَّـــع سريعاً بمعزل عن الصناعة، إنها تظهر بسبب البترول والصـــادرات المعدنية الغالية[٣]، وهذه الصفة لازمةٌ للمدينة الإفريقية منذ العصر الاســـتعماري؛ إذ أُنشئ معظمُها من أجل امتصاص الثروة والمواد الأولية بإفريقيا[٤].

بتعبيرٍ آخر: إنها- في الغالب- ليست مدناً إنتاجية Production Cities، وإنمـــا هي مدنٌ مســـتهلكة Consumption Cities[٥]، وما توسُّـــعُها إلاَّ صورة من صُوَر هذه الصبغة الاستهلاكية غير الصحية، ففي معظم مناطق إفريقيا تبلغ نسبة التحضُّر ما بين (٣-٦٪) ســـنوياً، وليست هذه الزيادة المتسارعة نتيجة انتعاش اقتصـــادي، وإنما هي بفعل الهجـــرات الريفية وفرار أهل الريف من الفقر والتهميـــش، ونتيجة للصعوبات المناخية التـــي ينتج عنها نفوق الـــرؤوس الحيوانية، وكساد المحاصيل الزراعية[٦]. وكلُّ هذه الحالات ينتج عنها وجود المجموعات الكبيرة في المدن دون برامج أو إجراءات موضوعة لاستقطابها، ودون خبراتٍ سابقة لأولئك الوافدين الجدُد بحياة المدن، والمشـــاركة في عجلة التنمية فيها. وعادةً ينخرط أولئك في أنشـــطة المواصـــلات، والتجارات الصغيرة، وتلك أنشـــطةٌ لا تُسهم في تحول الدولة نحو التصنيع.

علـــى ســـبيل المثال: فـــي كونغـــو الديمقراطية يســـتقطب القطاع الخاص حوالـــي (٨٠٪) من القوى العاملـــة. كذلك في زيمبابوي وُجـــد أن ثلاثة ملايين من العامليـــن، من بين أربعة ملايـــين، يحصلون على معيشـــتهم عبر الوظائف في القطاع الخاص، ويعولون حوالي خمســـة ملايين من المجتمع. بينما يستقطب القطاع الحكومي حوالي (١,٣) مليون نســـمة فحسب، ومع هذه النسبة المرتفعة للعاملين في القطاع الخاص؛ فإن مؤشر النمو الاقتصادي فيه بطيء[٧].

٤) نمـو جغرافـي وديموغرافـي مطـرد فـي وجه سياسات فاشلة:

دلَّت دراســـات الأمم المتحدة على أن أسرع عشر مدن فـــي النمـــو الديموغرافي في العالـــم في فترة (٢٠١٨-٢٠٣٥م) ستكون في إفريقيا. غير أن هذا النمو الســـريع يوازيه وجود حكومات فاشلة أو قليلة الرغبة

---

(١) S. Fox. 2014. The Political Economy of Slums: Theory and evidence from Sub-Saharan Africa, World Dev. 54, 191–203. in: D. Dodman, 11.

(٢) Bill Freund, The African City, 68.

(٣) D. Gollin, R. 2016. Urbanization with and without industrialization, J. Econ. Growth 21 (1), 35–70.

(٤) Bill Freund, The African City, 68.

(٥) D. Gollin, in: D. Dodman, 12.

(٦) Chapman, R.A. Op., Cit., IV.

(٧) Hove, M. 2013. The Urban Crisis in Sub-Saharan Africa. Stability, 2(1): 7, 1 -14, 6.

في اتخـــاذ برامج تنموية حقيقية، ففـــي غياب البنى التحتيـــة الموازية لنمو المدن تـــزداد حدَّة التحديات التـــي تواجه المدينة الإفريقية وتعمّق في هشاشـــتها، وحتى إذا وُجِـــدت رغبة حقيقية عند بعض الحكومات فإن ما يُعيق هذه الرغبة في التنمية عدم توفُّر بيانات ديموغرافيـــة حديثة لاتخـــاذ القـــرارات الصحيحة، وضعف الخبرات، وقلّة الإمكانات.

مثلاً؛ في عام ١٩٥٠م لم تكن نسبة سكان الحواضر في المجتمعات الإفريقية تتجاوز (١٠-١٥٪) من تعداد الســـكان، وســـرعان ما ارتفعت هذه النسبة في حقبة السبعينيات، وغدت إفريقيا أكثر مناطق العالم سرعةً في نمو المدن بنســـبة (٥٪) في الســـنة[١]. وفي عام ٢٠٢٠م كان تعـــداد المجتمع الحضري بإفريقيا حوالي (٥٨٨) مليون نســـمة، ويُتوقَّع أن يصل هذا العدد إلى حوالي (٨٥٤) مليون بحلول عام ٢٠٤٠م[٢].

هذا، ويُتوقَّع بلوغ حجم مدن معينة أكثر من (٨٥٪) في الســـنوات الخمس عشـــرة القادمـــة، منها مدينة «لاغوس» النيجيرية مثلاً، وهـــي أكبر مدينةٍ بإفريقيا جنـــوب الصحراء، تفيد إحصـــاءات ٢٠١٧م أن تعداد سكانها يبلغ (٢٢ مليوناً)، وسيرتفع هذا العدد إلى (٢٥ مليونـــاً) بحلول عام ٢٠٢٥م. إن هـــذا التزايُد المطرد المتسارع واردٌ أيضاً في مدن وعواصم إفريقية كثيرة، مثل: أبوجا، وكانو، وأديس أبابا، وكينشاســـا، ولُوَانْدا، ونيروبي[٣].

وتســـتقل بعض تلك العواصم بإيواء معظم سكان دولها، منها: مدينة مابوتو (موزامبيق) التي تبلغ نســـبة سكانها حوالي (٨٣٪) من تعداد السكان، ودكار (٦٥٪)، ولومي (٦٠٪)، وكامبالا (٥٠٪)[٤].

علاوةً على ذلك؛ فإن لبعض الحكومات الإفريقية الحديثة إسهاماً في هشاشـــة المدن؛ بغياب تخطيطٍ حقيقي مســـتقبلي لـــدى تلك الحكومـــات، وانخراط كثيرٍ من مســـؤوليها الكبار في أنشطةٍ معادية للأمن، كبيعٍ الأراضي للشـــركات الكبرى، وإصدار التراخيص لبناء المنشـــآت في المواضع المخصصة للاستخدام العـــام، أو لمجـــاري المياه، وينتج عن ذلك ســـدُّ تلك المجـــاري الطبيعية وإحداث الفيضانات في مواســـم الأمطـــار، ومقتل الأعداد الكبيرة أحياناً من جراء تلك الفيضانات، أو انتشار الأمراض والفيروسات المُعْدية.

٥) المدينـة الإفريقيـة مُكْلفـة، وسكانهـا- في الغالب- فقراء:

من الســـمات العامة فـــي مـــدن إفريقيا جنوب الصحـــراء غلبة الفقر على ســـكانها؛ إذ يمثِّل الفقراء بها نسبة (٦١,٧٪)، وهي بذلك أعلى منطقة في الفقر الحضري في العالم. ويوازي هذا الفقرَ غلاءٌ شاملٌ في المسكن والمأكل، وسائر الخدمات، وهذا ما يؤدي إلى تكريس الفقر الحضري وتوطينه[٥].

ففي دراســـة لأربع مدن إفريقية تبيّن أن الحصول على أقلّ قدرٍ من المياه، عبر الصنابير السكنية، يكلف أكثـــر من (١٣٪) من دَخْل أهل بيتٍ مكوّن من خمســـة أفراد[٦]، كما تبيّن أن سكان المدن الإفريقية يدفعون أكثـــر من (٢٠٪) حتـــى (٣١٪) للحاجيات والخدمات؛

---

(١) Todaro, M. 2000. Economic Development. Essex: Pearson Education Ltd, in: Hove, Op., Cit., 1.

(٢) UNDESA. 2015. World Urbanization Prospects, 2014 Revision. NY: United Nations.

(٣) Elmqvist, Thomas, et al. (eds). 2013. Urbanization, Biodiversity and Ecosystem Services: Challenges and Opportunities, Springer, 454.

(٤) World Bank. World Development Report. 2002. Building Institutions for Markets. Oxford University Press, in: Mediel Hove, 2.

(٥) D. Mitlin, D. Satterthwaite. 2013. Urban Poverty in the Global South: Scale and Nature, Routledge, London.

(٦) D. Mitlin, A. Walnycki. "Why is water still unaffordable for sub-Saharan Africa's urban poor?" IIED Briefing: http://pubs.iied.org/17353IIED.html. in: Dodman, Op. Cit., 11.

مقارنةً بغيرهم حول العالم في المدن ذات الدخل المتدني أو المتوسط[١]. وهكذا؛ فإن متوسط إنفاق الأسرة الإفريقية الحضرية في مختلف الحاجيات الأساسية يفوق دَخْلَها الفعلي، منها مثلاً:

- إيجار البيوت (٥٥٪).
- الاتصالات (٤٦٪).
- المواصلات (٤٢٪).
- الأغذية والمشروبات غير الكحولية (٣٥٪).

وفي تصنيف لأغلى المدن في العالم؛ وجدت مؤسسة Mercer، عام ٢٠٢١م، أن أربعين دولةً إفريقية هي غالية في تكاليف المعيشة (بإفريقيا ٥٤ دولة)، وأن مدينة انْجامينا تحتلُّ المرتبة الثالثة عشرة في هذا التصنيف العالمي، وتحتلُّ مدينة لاغوس المرتبة (١٩)، وأبيدجان (٢٤)، وبانْغي (٣٠)، تليهنَّ سائر المدن الإفريقية[٢]، على الرغم من أن كلاً من هذه الدول التي بها تلك المدن هي دولٌ تُصنَّف بأنها فقيرة.

ولعل مقارنةً سطحية تُجلّي فداحة الغلاء بالمدن الإفريقية: إن مدينة «دار السلام» بتنزانيا- مثلاً- تُصنَّف ضمن المدن الإفريقية متوسطة الغلاء، ومثلها غامبيا، ومدغشقر؛ لكنَّ سعر الوجبة الواحدة في هذه المدينة يفوق ضعفَيْ سعر مثلها في بانْكوك، على الرغم من أن متوسط الدخل الفردي في بانكوك يتجاوز نظيره في «دار السلام» بمعدَّل (٢٣) مرَّة[٣].

٦) المدينة الإفريقية- في الغالب- عنيفة:

الغالب في المدينة الإفريقية، أو في بعض المدن خاصَّة، ارتفاع مؤشر العنف فيها، وقد ثبت وجود علاقة ارتباطٍ قوية بين ارتفاع وتيرة العنف وشدَّته وبين توسُّع بعض المدن الإفريقية[٤]. ويتميز ظهور العنف الحضري Urban Violence بإفريقيا بالميليشيات المرتبطة بالنزاعات السياسية، وعصابات الإجرام في الأحياء الفقيرة، وحالات العصيان المدني المرتبطة بالفئات المهمشة، وهنا أمثلة ووقائع كثيرة، خاصة في فترات الانتخابات: كوت ديفوار (٢٠١٠-٢٠١١م)، وكينيا (٢٠٠٢-٢٠٠٨م)، ونيجيريا (٢٠١١م)، وزيمبابوي (٢٠٠٨م). وقد تعلو وتيرة العنف؛ فيكون ردُّ الحكومة والبوليس وأجهزة الأمن أكثر عنفاً.

ثم إن نزعات كراهية الأجانب والمهاجرين، والعصبيات القبَلية، من الظواهر التي ترتفع مؤشراتها في بعض العواصم الإفريقية كجمهورية جنوب إفريقيا، وأنغولا، حيث يتعرَّض المهاجرون النيجيريون، والزيمبابويون للعنف والقتل الجماعي، ونهب ممتلكاتهم لأسبابٍ تافهة. ولا شك في أن العنف بجميع مستوياته السياسية والأهلية يزيد من هشاشة المدينة، ويعيق الانتعاش الاقتصادي، والتناغم الاجتماعي بها.

٧) التجمعات السكنية في المدينة الإفريقية أغلبها عشوائية:

في كلِّ مدينةٍ كبرى بإفريقيا أحياءٌ عشوائية كبرى مشهورة، مثل: Kibera (نيروبي)، وKaru (أبوجا نيجيريا)، وSoweto (جوهانسْبرغ)، و Camp Luka (كينشاسا)، وBonaberi (دُوَالا كاميرون)، وDerriere Rails (أبيدجان)، وغيرها الكثير. والعشْوائيات Slums: بيوتٌ مكدَّسة مبنية من الخشب، أو الكرتون، أو الصفيح أو أي مادة رخيصة، تعدم فيها مقومات الحياة الضرورية. وعادةً تقع في المناطق الخطرة، كمناطق الفيضانات، أو القريبة من

(١) African Nakamura, S. et al. 2016. "Is living in cities expensive?", The World Bank. https://elibrary.worldbank.org

(٢) Victor, Oluwole. Mercer 2021. Cost of Living City Ranking, Africa.businessinsider.com, June 28, 2021.

(٣) World Bank. 2015. "Crowded with People, not dense with Capital", in: Africa's Cities: Opening doors to the World.

(٤) UN-Habitat. 2015. 'African Forum for Urban Safety Launched'. Httpp://unhabitat.org/africa-/forum-for-urban-safety-launched

المزابل العامة، أو مواقع النفايات الخطرة الضخمة والصُّلبة، ومواقع الانهيارات الأرضية، أو القريبة من المصانع الملوثة بالمواد الكيميائية، وتحت المنشآت الكهربائية عالية الضغط.

وطبقاً لوكالة الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية؛ فإن حوالي (٦٣٪) من سكان المدن بإفريقيا جنوب الصحراء، يعيشون في الأحياء العشوائية[١]. بينما لا تتجاوز تلك النسبة في الدول النامية (٣٤٪)، وفي مدينة لاغوس خاصة؛ فإن فردَين من كلّ ثلاثةٍ يسكنان في أحياء عشوائية[٢]. وقد أدَّى هذا الوضعُ إلى ظهور ما يُعرف بـ«حضرية الفقر» Urbanization of Poverty. ويشجِّعُ هذا الوضعَ من الفقر عجزُ الحكومات الإفريقية عن وضع إستراتيجيات استقطابية من أجل استيعاب الأعداد الغفيرة التي تهاجر إلى المدن، وكذلك وضع إستراتيجياتٍ من أجل الحدِّ من الهجرة الريفية بالطُّرق التشجيعية وتطوير المدن الصغيرة والأرياف، وتوفير الضروري من البنى التحتية والخدمات الأساسية؛ لتتم إعادة هيكلة التوزيع السكاني بشكلٍ طبيعي متوازن بين المناطق المختلفة من الدولة.

وفي معظم الأحيان؛ فإن الحكومات والبلديات تعامل سكان العشوائيات على أنهم مخالفون للقوانين، وبالتالي غير جديرين بالخدمات الأساسية من مياه وكهرباء وطُرق، وغيرها. ثم إن المسؤولين الحكوميين يفضلون دائماً صرف أموال الدولة في مشاريع انتخابية دعائية محسوبة، وعادةً لا يكون لتطوير العشوائيات، والعناية بالمجموعات المهمشة، اعتبارٌ كبيرٌ في تلك المشاريع[٣].

أخيراً؛ تجدر الإشارة، في معرض الحديث عن بعض خصائص المدن الإفريقية، إلى أن تلك الخصائص ليست في حدّ ذاتها سلبية في ظاهرة هشاشة المدن، وإنما طريقة التعامل مع هذه الخصائص هي المعيار. مثلاً: «حداثة المدينة الإفريقية»؛ لو أحسن مُخطِّطو المدن التعامل مع هذه الخاصية؛ لاستفادوا مما توصَّلت إليه هندسة المدن في هذا المجال من تطور. كذلك؛ فإن كون «معظم سكان المدن الإفريقية من الفئة الشابة» يُعدُّ عنصراً استثمارياً فريداً لوضع خططٍ طويلة المدى، وهكذا.

المحور الثاني: الهشاشة والأمن الحضري في ظل المدينة الإفريقية:

يمكن تشخيص هشاشة المدينة بإفريقيا جنوب الصحراء من خلال علاقتها بالأمن، وهنا نتبنَّى ما استقرَّ عليه العمل في كثيرٍ من الدراسات الاجتماعية من تقسيم للأمن إلى سبعة عناصر أساسية، هي: (١) الأمنُ الاقتصادي، (٢) والأمن الغذائي، (٣) والأمن الصحي، (٤) والأمن البيئي، (٥) والأمن الشخصي الفردي، (٦) والأمن المجتمعي، (٧) والأمن السياسي[٤]. إن ارتفاع مؤشر الأمن أو تدنيه في أي من هذه العناصر مقياسٌ لمدى هشاشة المدينة المعنية أو صمودها.

١) الأمن الاقتصادي:

إذا كانت الحياة الحضرية توفِّر للفرد عادةً أفضل الفرص الوظيفية والوسائل الاستثمارية لكسب العيش؛ فإن الحواضر الإفريقية كثيراً ما تُخيِّب آمال قاصديها! من هنا يتحدَّث الباحثون عن الفقر الحضري Urban Poverty، والفقر الريفي Rural Poverty، والأول- في السياق الإفريقي- أشدّ وأوسع من الآخر؛ لأن سكان الأرياف قلّما يعدمون الغذاء والسكن، وكذلك

(١) Randers, Jorgen. 2012. 2052: A Global Forecast for the Next Forty Years, Chelsea Green Publishing, 200.

(٢) Africa's Cities, Opening Doors to the World, 38.

(٣) Stephen, Commins. 2011. "Urbvan Fragility and Security in Africa", Africa Security Brief, No.12, 4.

(٤) UN, Human Security Unit. 2016. Human Security Handbook, 7.

فإن روح التكافل الاجتماعي والتماسك الأسري أقوى في القرى والأرياف منها في المدن؛ مما يخفِّف عن الفرد آثار الفقر في الريف.

ففي المدن الإفريقية؛ نجد أن واحداً فحسب من بين كلّ ستّة شبان هو الذي يعمل عملاً ذا مرتَّب منتظم[١]، وفي كلّ سنة يبلغ حوالي ١٠ إلى ١٢ مليون شاب عُمُر التوظيف؛ لكنَّ الوظائف الجديدة لا تتجاوز ٣,١ ملايين[٢]، فهنا عجزٌ حادٌّ في الوظائف، أضفْ إلى ذلك نسبةً عالية من الأطفال الذين لا يُلحَقون بالمدرسة، مما يجعلهم فريسةً سائغةً لشتَّى صنوف الإغراء والجنوح (أطفال الشوارع، والمجنَّدون في الميليشيات).

٢) الأمن الغذائي:

تشارك المدينة الإفريقية غالباً في تدنِّي الأمن الغذائي من صُوَر شتَّى، منها: توسُّع المدينة لامتصاص الأراضي الزراعية، ومنها انتشار الأطعمة غير الصحية كالمعلَّبات الفاسدة أو المنتهية الصلاحية، ومنها سوء التغذية الذي يعاني منه الأطفال خاصَّة، ومنها الغلاء الفاحش في أسعار الأطعمة، والاعتماد غالباً على نوع واحد من الأغذية كالأرز والذُّرة... كلُّ ذلك يُعرِّض الحياة بالمدينة للخطر؛ بما يفسح المجال للتداعيات المختلفة كالأمراض المرتبطة بسوء التغذية والتسمُّم.

هذا، وقد سبقت الإشارة إلى أن الحياة بالمدينة الإفريقية مُكلِّفة جدّاً، وأن جزءاً كبيراً من الدخل الأسري يُصرَف في الإنفاق على الأغذية. عليه؛ لا يخفى أن لغلاء المعيشة علاقةً- ولو غير مباشرة- بالهشاشة الحضرية، وبوقوع الأفراد فريسة للتهديدات الأمنية، إن إنفاق معظم الدخل الأسري على المعيشة يعني تدنِّياً في إعداد الوسائل الوقائية في المدينة، كتأمين مسكنٍ جيد للأسرة، والحصول على برنامج تأمين صحي، والإنفاق على تربية الأطفال، وحماية المراهقين منهم من الوقوع في براثن العصابات المجرمة، وإدمان المخدِّرات. كما يُلجئ الغلاءُ الأفراد والمجموعات إلى البحث عن البضائع الرخيصة عبر طرق التهريب وغيرها.

٣) الأمن الصحي:

تُشكِّل هشاشة المدينة تهديداً للأمن الصحي، ويتمثل ذلك في تعرُّض الأفراد للأمراض، وضعف الوقاية من الجراثيم والأمراض المعدية، وقلَّة الحصول على الرعاية الصحية الأساسية. وتؤكد التقارير أن كثيراً من الأمراض والأوبئة المتوطنة بإفريقيا هي «أمراضٌ حضرية»، كوباء الكوليرا، والإسهال والأمراض الهضمية، بسبب تسمُّم الأطعمة والمياه الملوثة بمياه مجاري دورات المياه العشوائية، والأمطار والفيضانات[٣]، كما أن ضعف نظام الصرف الصحي يرشِّح لأمراض الملاريا والحمى.

أيضاً؛ مما يهدِّد الأمن الصحي بالمدينة شدَّة الازدحام في الكثافة السكانية، وهذا مما يعزِّز تعرُّض الأفراد للأمراض المعدية. ويؤكد الواقع أن معظم الأوبئة الحديثة، من كورونا وإيبولا، إنما تنتشر انتشاراً موسَّعاً بفعل الكثافة السكانية المفرطة في المدن المقرونة بتدنِّي الرعاية الصحية. مثلاً؛ في جائحة فيروس إيبولا بغربي إفريقيا (٢٠١٤م)، وُجِد أن الانتشار السريع لهذا الوباء كان بسبب وجوده في الحي العشوائي Kenema بمدينة فريتاوْن عاصمة سيراليون؛ حيث يعيش أكثر من (٩٧٪) من سكان المدينة، ففي غياب إجراءات التشخيص والحجر الصحي انتشر الفيروس وخرج عن حدِّ السيطرة، ووقع الأمر نفسه في أحياء شعبية عبر إفريقيا: في ماسيندي Masindi يوغندا، وكيكْوي Kikwit في

(١) AfDB. 2017. 'Jobs for Youth in Africa'. https:// /www.afdb.org/fileadmin/uploads

(٢) Matthew, Abbey. 2020. "Addressing the Challenges of Urbanization in Africa", 16.

(٣) David Dudson. Op. Cit., 9.

كونغو، وويسّت بونْت West Point ليبيريا[١].

٤) الأمن البيئي:

تواجــه المدينة الإفريقية تحدّيــاً قوياً في الأمن البيئــي؛ لأن المدينة نفســها جزءٌ من المشــكلة، إن مؤشــر الأمن البيئي متدنٍّ جدّاً بالمدينة، ويتمثَّل ذلك في إســهامها في التردي البيئي، واستنزاف الموارد، وفي ضعف صمودها في وجه الكوارث الطبيعية. مثل العواصف الاســتوائية، والفيضانات، والمخاطر التي هي من فعل البشــر، كالطلب المتزايــد على الطاقة الكهربائيــة، والســكن، وما تنفثه المصانع ووســائل المواصلات من غــازات، وما تســتنفده من وقود... وعادةً لا تكون للحكومات خطَّة للتحكُّم في تلك المواد المُضرَّة بالبيئة، هذا من جانب.

من جانبٍ آخر؛ قد لا تكون للحكومات طاقةٌ لتلبية مطالب الحياة الحضرية؛ فيلجأ الأفراد والمجموعات إلى البحث عن وسائل غير مشروعة لتغطية احتياجاتهم الضرورية من الوقود وغيرها، وهذا ما يؤدِّي إلى صُوَرٍ كثيرة من الخطر على حياة ســكان المدينة، وقد يلجأ بعضهم إلى الوســائل العنيفة لحمايــة ممتلكاتهم أو للاستيلاء على مصادر من حقوق غيرهم.

بالإجمال؛ يقل الأمن البيئي في المدن الإفريقية بعدة اعتبارات:

- **وجود غالبية تلك المدن على سواحل المحيط:**

إلا في حال الدول الحبيســة التي لا ساحل لها (مالي مثلاً)، فإن المدن الساحلية هي عرضة للكثير من التهديدات البيئية والأمنية، كالعواصف البحرية، وارتفاع مســتوى المياه، وانتشار عصابات القرصنة. ومن المدن التي تُذكر بهذا الصدد مدينة كامبالا في يوغندا، فإنها- بدون سياساتٍ وقائية جادَّة- ستغدو ضحية الفيضانــات العاتية، والأمراض الجائحة في حدود عام ٢٠٣٠م[٢].

- **الاعتماد شبه الكلي على الزراعة:**

تعتمــد معظم الــدول الإفريقية علــى الزراعة التقليديــة، وتمثل أكثر مــن (٤٢,٧٪) من الوظائف بإفريقيا، خاصَّة بالمنطقة الغربيــة[٣]، ويؤدِّي ذلك إلى الاســتخدام المفرط للمــوارد الطبيعية ونهبها ونضوبهــا، هذا فــي ظلّ ارتفاع معــدلات الحرارة، وقلَّــة الأمطــار، وكلُّ ذلك يهدّد المدينــة الإفريقية بالمجاعــات، والاعتمــاد المتواصل علــى الغذاء المستورد.

- **ضعف صمود المدينة في وجه آثار ظاهرة الاحتباس الحراري:**

للمدن الكبرى نصيبٌ في ارتفاع نسبة الاحتباس الحــراري؛ لكثرة مــا فيها من وســائل مواصلات ومصانع، وما يســتهلكه سكانها من وقود في مختلف حاجاتهم اليومية، وعلاوةً على ما ينتج عن الاحتباس الحراري من تداعياتٍ خطيرة على صحة البشر، وما يســتلزمه ذلك من تخطيطٍ للمــدن، فإن الاحتباس الحراري يُحدِث خلخلةً فــي نظام الطقس وفصول السنة والمواسم؛ حيث تتأخر الأمطار عن مواعيدها المعتادة، وتتخلَّف الرياح الموســمية عن مواسمها، وربما عن مواقعها المعتــادة؛ فتظهر في مواضع لم تكــن مرتقَبَة فيها. هذا، وتفيــد تقارير المدن بهيئة الأمــم المتحــدة (٢٠١٠م) بأن نســبة (٢٥٪) من مجموع سكان إفريقيا تعيش داخل ١٠٠كم فقط من السواحل، وإن الغالبية العظمى من هذه النسبة تعيش مباشرةً على حوافِّ السواحل، مما يعني أنها معرَّضة تعرُّضاً مباشراً لمخاطر العواصف البحرية، وارتفاع مستوى البحر[٤].

---

(١) Lee W. Riley. 2014. "Ebola in Urban Slums", Vol.2, OA Open Access, e685.

(٢) Dudson, Op. Cit., 8.

(٣) Kheira, Tarif. 2022. "Climate Change and Violent Conflict in West Africa", SIPRI. No.3, 4.

(٤) Chapman, Cities and Climate Change, 6.

• **عدم وجود تناسب إيجابي بين توسع المدن جغرافياً وبين ازدياد عدد سكانها:**

أي أن المدن الإفريقية تتوسَّع توسُّعاً هائلاً في المساحة، بينما لا توجد زيادةٌ مماثلة في تعداد سكانها، فقد تجاوز توسُّع المدن جغرافياً (٥,١٪) في الفترة ٢٠٠٠-٢٠١٥م، بينما لم يتجاوز ازدياد سكانها (٤,٢٪) في الفترة نفسها، أي أن هناك فارقاً يصل (١,٢٠٪)[١]، ومن الواضح أن هذا النمو في مساحة المدن الإفريقية يُحدِث ضغطاً قوياً على البيئة، كاستهلاك الغابات والأراضي الزراعية، وهذا بالتالي يُعزِّز الفُرَص للكثير من القلاقل الاجتماعية كالتنازع على الأراضي ومصادر المياه، وتدنِّي فُرص الكسب للمزارعين الصغار، وتدنّي الثروة الحيوانية، وغيرها من صُوَر الإنتاج الزراعي، ويعني ذلك مزيداً من الاعتماد على الخارج في الغذاء.

٥) الأمن الشخصي:

يُراد بهشاشة المدينة- في مستوى الأمن الشخصي- قصورها في حماية الأفراد من العنف الجسدي بجميع أشكاله، وتعرُّضهم للاستغلال، والعمل الجبري، وقصورها في الحدِّ من انتشار الجريمة والنهب والأسلحة الخفيفة، وقطع الطُّرق، والاغتيالات.

في هذا المضمار؛ دلَّت الإحصاءات العالمية للجريمة على ارتفاع مؤشرات الجريمة في إفريقيا على مختلف المستويات، فمن بين حوالي نصف مليون من أنواع جرائم القتل المرتكبة حول العالم عام ٢٠١٢م، جاءت إفريقيا في المرتبة الثانية (٣١٪) بعد الأمريكتَين (٣٦٪). وفي تصنيفٍ لأعلى عشرين دولةً في معدَّلات الجريمة جاءت خمس دول إفريقية في هذا التصنيف، وهي: جنوب السودان، وجنوب إفريقيا، ونيجيريا، وكينيا، وليبيا.

أيضاً؛ دلَّت إحصاءات مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجرائم (UNODC، ٢٠١٥) على أن المعدَّل العالمي لعدد الضحايا، مقارنةً بتعداد السكان، هو (٦,٢) لكلّ (١٠٠,٠٠٠) نسمة، لكنَّ المعدَّل الإفريقي هو ضعف هذا المؤشر (١٢,٥). هذا، وإذا كان الباحثون يصنِّفون تلك المخاطر إلى: مكثَّفة وموسَّعة intensive, extensive، ومخاطر يومية معتادة، فإن مكتب الأمم المتحدة للحدِّ من مخاطر الكوارث (UNISDR، ٢٠١٥)، ينبِّه على أن المخاطر اليومية أشدّ وقعاً وأكثر فتكاً من مخاطر الكوارث؛ حيث إن ضحاياها أكثر[٢].

وبالنظر في طبيعة تلك الجرائم؛ وُجِد أن معظمها هي جرائم مرتبطة بالحضر، مثل: تهريب البضائع والأسلحة النارية، والتعدي الجنسي، واختطاف الناس، وسرقة السيارات، والاتجار بالأطفال، والسطو المسلَّح على المنازل وعلى المحلاَّت التجارية والبنوك، والجريمة المنظَّمة. فضلاً عما يشيع بالمدينة من الأمراض النفسية كالتوتُّر المفرط، والأرق المتواصل، وإدمان المخدرات والكحول، وما ينتج عن ذلك من جرائم كالانتحار، والتعدِّي على الأبرياء، وحوادث المركبات.

كما أن أسبابها هي أسبابٌ- في الغالب- مرتبطةٌ بالحضر، كالبطالة، وفلَتان الأمن، والتنافُس بين المجموعات المتصارعة على الموارد المحدودة. ومنها أسبابٌ عالمية يُطلق عليها the balloon effect أي: الأثر النُّزوحي، وهي أن نجاح الحملات الأمنية ضدَّ الجريمة وتجارة المخدِّرات في أوروبا وفي دول الكاريبي قد أدَّى إلى تنامي تلك التجارة بإفريقيا خاصَّة.

٦) الأمن المجتمعي:

تظهر هشاشة المدينة في مستوى الأمن المجتمعي في تعرُّض المجموعات للإجرام، أو العنف بسبب انتمائها العرقي أو الديني، أو أي شكلٍ

(١) World Cities Report 2020, 17.

(٢) https://www.unisdr.org/we/inform/publications/42809

مـــن العنف الموجَّه نحو مجموعـــة معينة؛ بناءً على هويتها، وعجـــز المدينة عن توفير الحماية القانونية للمجموعة المســـتهدَفَة. وقد تأتـــي بعض الظروف فتُعمِّق من هشاشـــة المدينـــة الإفريقية، منها مثلاً: الهجرات الداخلية بسبب النزاعات العنيفة، وقد دلَّت إحصاءات عام (٢٠٢١م) علـــى أن تعداد المهجَّرين داخلياً بمـــدن غربي إفريقيا حوالي ســـبعة ملايين نســـمة[١]، وهنا تحدث مصادمـــاتٌ بين «الأصليين» و«الوافدين» autochthonous Vs foreigners، كمـــا في مـــدن كونغو: غومـــا، وبوكافو وكيشـــانغا Goma, Bukavu, Kichanga، والمصادمـــات الداميـــة المتكـــرِّرة بمنطقة الحزام الأوســـط في نيجيريا، بين الرعاة والمزارعين.

٧) الأمن السياسي:

تتمظْهَـــر هشاشـــة المدينة في مســـتوى الأمن السياســـي في تعرُّض الأفراد لانتهاك حقوقهم دون أن تكـــون هناك إجراءاتٌ قانونيـــة لحمايتهم، وحين تصل الحياة الحضرية والمدينة لهذا المســـتوى من الهشاشة فإن فرقاء كثيرين يتدخلون في هذا الشأن، كالمؤسسات العالمية، والشـــركات العابرة للقارات، وكبـــار رجال الأعمـــال، والزعمـــاء القبليين، وحتى زعماء العصابات الإجراميـــة، وغيرهم من الممثِّلين غير الحكوميين، وهذا واضحٌ في دول وسط إفريقيا وفي منطقة البحيرات العظمى، في كينشاسا، وغوما، وبوجومْبورا.. ولكلٍّ واحدٍ من هؤلاء الفرقاء أجنداتٌ وأهدافٌ خاصَّة.

هذا، وتعلو هشاشـــة المدينة الإفريقية في ظل النزاعات الأهلية، والمنافسات السياسية، فهي مقصد الجماعات المهاجرة الفارَّة من ميادين الحرب، ومقرُّ الكثير مـــن الخدمات الإنســـانية والإغاثية، وبرامج بناء السلام المصاحبة للنزاعات، وكلُّ ذلك يؤثِّر في التركيبة الاجتماعيـــة للمدينة، وفي بيئتها وتركيبتها الشـــكلية[٢]. بل تغـــدو المدينة فـــي معظم الأحيان مستهدَفةً من أجل الســـيطرة عليها، وحسم النزاع، وفي تلك الحال تكون أكثر عُرضةً للهشاشـــة بتدمير البنى التحتية فيها، وإزهاق أرواح ساكنيها. وأشدُّ من ذلك كلّه، حين تغدو المدينة الإفريقية حلبةً لتصفية الحســـابات الدوليـــة، من ذلك حـــال مدينة نيروبي التي شهدت بعض العمليات الإرهابية الشاملة، منها تفجير مبنى الســـفارة الأمريكية عام ١٩٩٨م، الذي أودى بحياة أكثر من (٢٥٠) فرداً، والهجوم على سوق Westgate ٢٠١٣ ومقتل ٨٠ ضحية.

ملحوظات ختامية:

إن مـــا ورد في المحـــاور الســـابقة، عن واقع المدينة الإفريقيـــة ومجتمعاتهـــا الحضرية، ينبغي النظر إليه في إطار المشكلة الإفريقية العامة؛ حتى لا نُحمِّل المدينة الإفريقية أكثر مما تحتمل. وينبغي أن نسْتَحْضر في هذا الســـياق ما حذَّر منه الباحث Ndi مـــن الصفات الســـلبية الكثيـــرة التي يطلقها بعض الباحثين حول المدينـــة الإفريقية دون تريث، مثل: عنيفة، نشـــاز، متردِّية أخلاقياً، فَوْضَوية... إذ إن معظـــم هذه الصفات مضلِّلة في ســـياق المدينة الإفريقية، والســـبب أن المدينة في التاريخ الأوروبي أُنشئت لتعزيز أهداف الثورة الصناعية، بينما الحال فـــي إفريقيا أن مدنها الحديثة إنما أنشـــأتها القوى الإمبريالية لتخليد الاســـتغلال الاقتصادي للقارة[٣]، أو بتعبيـــر الباحثة كاثرين: «غدت المدن في القرنين التاسع عشر والعشرين موضعاً أساسياً لسوق العمل، والصراعات السياسية»[٤].

---

(١) Kheira Tarif, "Climate Change", Op. Cit., 5.

(٢) Kaldor, Mary, and Saskia S. Cities at War: Global Insecurity and Urban Resistance. in: Karen B. African Cities and violent conflict, 196.

(٣) Alfred, Ndi. 2007. "Metropolitanism, capital and patrimony: theorizing the Postcolonial West African City", African Identities, 5:2, 167-180).

(٤) Cathering Couery-Vidrovitch. "African Urban

إن ظروف الاستعمار هي التي جعلت من الدولة الإفريقية الحديثة مصدراً للاستغلال المستمر، مثلاً: إن مصباحاً واحداً من كلّ ثلاثة مصابيح في فرنسا يُضاء بفضل اليورانيوم المجلوب من النيجر؛ بينما لا يحصل (٩٠٪) من سكان النيجر على الكهرباء[١]! عليه؛ قبل أن نَصِفَ عاصمة النيجر (نيامي) مثلاً بأنها «هشَّة»؛ ينبغي علينا مواجهة هذا الظرف الاستعماري الاستغلالي القائم.

بالإضافة إلى هذا الاعتبار المهم في مكونات الهشاشة بالمدن الإفريقية؛ ينبغي النظر في عدة اقتراحات؛ من أجل النهوض بالمدينة الإفريقية وصمودها، منها:

١- استقلالية الدولة الإفريقية في اتخاذ قراراتها التنموية، وتحديد أولويات بُناها التحتية، فلا مخرج للدولة الإفريقية ولمُدنها إذا كانت تنفِّذ خُططاً وأجنداتٍ استعمارية في تحديد أولوياتها الوطنية.

٢- عقد مصالحة فكرية وروحية جديدة مع البيئة الإفريقية؛ إذ إن المعرفة العميقة الحقيقية بالواقع الإفريقي، وبالتراث القومي، والتلاحُم المعنوي بالتُّراب الإفريقي، لهي الخطوة الأولى نحو تعزيز الدولة الإفريقية، وإخراجها من طَوْر الهشاشة إلى القوة والصمود.

٣- العمل يداً بيد، ولكن بوعي ويقظة، لإبرام شَراكاتٍ عالمية من أجل تعزيز قُدرة المناطق الحضرية على الصُّمود في وجه المخاطر المرتقبة، فلا تقدُّم لإفريقيا في ظلّ العزلة، وفي غياب الاستفادة من الخبرات العالمية في التخطيط والتطوير.

هذا، ويغرينا على طرح المقترحات السابقة حال المدينة الإفريقية القديمة؛ إذ نجد أنها كانت تحظى- نسبياً - بالكثير من مقومات الصُّمود، وتوفير أشكال الأمن والحماية لسكانها.

ويمكن عرض بعض الحقائق هنا باختصار:

أولاً: وُجدت بمختلف مناطق إفريقيا مدنٌ كبرى بمقاييس أزمانها:

ففي الجنوب الإفريقي: وُجدت مدنٌ وتجمُّعاتٌ سكانية واسعة يُطلِق عليها الباحثون «المدن الزراعية» agro-towns، ويذكرون أن سكان بعضها جاوزوا ما بين ١٠ و٢٠ ألفاً، ومن تلك المدن: Shoshong, Kanye, Serowe, Molepolole في بوتسوانا الحالية[٢]. كما عُرِفَت بمنطقة زيمبابوي الحالية مدنٌ كبيرة نسبياً مبنيَة من الحجر، يُطلَق عليها بلغة شونا: madzimbahwe؛ أي «مساكن الملوك». منها أيضاً مدينة Mbanza Kongo في أنغولا الحالية، ومدينة Gondar في إثيوبيا في القرن السابع عشر الميلادي.

وفي الغرب الإفريقي: مدينة «جيني» (بدولة مالي الحالية)، التي تجاوز عمرُها ألفَيْ عام، وبلغ تعداد سكانها أكثر من ٢٠ ألف نسمة حوالي عام ٨٠٠م، ومدينة «الغابة» عاصمة مملكة غانة القديمة، ومدينة «كانو» في القرن السادس عشر، و«بنين» عاصمة داهومي، و«كوماسي» عاصمة أشانْتي، هذا ناهيك عن مدن شمال إفريقيا: الإسكندرية، وقرطاج، وفاس.

ثانياً: انسجام المدينة مع البيئة المحلية جغرافياً وثقافياً:

وكذلك مع المعتقدات التقليدية السائدة في المجتمع، ورؤيته للكون والحياة، ويظهر ذلك في مواقع القرى والمدن، وفي هندسة البيوت وتنظيمها وتوزيعها طبقاً للتركيبة الاجتماعية، والعلاقات الأسرية، فللنساء أكواخٌ مستديرةٌ، لها بابٌ خلفي ينفتح على مساحة مُسيّجة بمثابة بستان خلفي، وتوزيع البيوت بحسب الفئات العمرية كما عند

Steven J. S. :Spaces History and Culture", in .and Toyin Falola, African Urban Spaces, xvi

(١) Abhijit, Mohanty. 2018. "Uranium in Niger: When a Blessing Becomes a Curse", OPINION, .April 19th

(٢) Bill Freund, Op., Cit., 2.

مجموعات لامّبا في زامبيا، وعند مجموعات دوغُون في مالي، يعبِّر توزيع البيوتات بما فيها بيت الزعيم داخل القرية، عن أعضاء جسد بشري، من رأس وأطراف وغيرها[١]. كما يتَّبع الفولاني نظاماً دقيقاً في توزيع مساكن أفراد الأسرة، حتى المقابر، بحسب تقسيم الجهات الأربع[٢].

ثالثاً: مدن صامدة قوية مستدامة:

تدلُّ المصادر الجغرافية والتاريخية حول المدن الإفريقية على أنها كانت على قدرٍ عالٍ من الصُّمود، وتوفير سُبُل الأمن والرعاية والتكافُل الاجتماعي لسُكانها، خاصَّة في ظلّ السلطنات الإسلامية؛ حيث عُرِفتْ مُدنٌ بأنها «دولة داخل دولة»، تحظى بحصانة مطلقة، فمدينة «تمبكتو» مثلاً كما يصِفُها ابن المختار: «ليس فيها حُكْمٌ إلا حُكمُ مُتَوَلِّي الشرع، ولا سُلطانَ فيها، والقاضي هو السلطانُ، وَبِيَدِه الحَلُّ والربطُ وَحدَه»[٣]. ومثلها مدينة «كُنجور» التي «لا يدخلُها جندي، ولا يسكنُها أحدٌ من الظَّلَمَة»[٤]، ومدينة جَعْب، وتيمّبي، وبُونْدو، ودار سلامي، وتُعرف مثل هذه المدن في القاموس التاريخي بإفريقيا بـ Republique des Marabouts، أي «جمهورية المشايخ».

أيضاً؛ حرصَتْ مدن كثيرة على تحصين حدودها بأسوارٍ منيعة، يُطلق عليها كافو Kafu، وهي أسوارٌ سميكة مرتفعة، تعدو الخيول فوق بعضها من سعة سطوحها[٥]. وكانت جميع المدن في بلاد هَوْسا مُسوّرة تقريباً، كما كانت مدن زيمبابوي الكبرى نوعاً من الحصون والقلاع؛ محاطة بأسوارٍ حجرية سميكة، وبداخلها يتوفَّر الكثير من مقومات الحياة الحضرية والحماية العسكرية، وداخل تلك الأسوار مساحاتٌ زراعية واسعة تكفي لتأمين احتياجات سكان المدينة الغذائية لفترةٍ طويلة في حال حصار مضروب عليهم.

إن كلَّ ما سبق؛ يدلُّ على انسجامية المدينة الإفريقية القديمة بمحيطها الطبيعي، وإن معظم ما يعرقل تقوية المدينة الإفريقية الحديثة، ويعيق تقدُّمها نحو الصُّمود، وتحقيق الرفاهية لسكانها، ناشئٌ عما تلبَّس بالمدينة الإفريقية– ولا يزال– من ظروفٍ خارجية، وزاد الطينَ بلَّةً ضعف الإرادة والإدارة لدى السلطات الإفريقية، وضعف التخطيط لمواجهة التهديدات المختلفة. والمشكلة الحقيقية لا تكمن في التزايد السكاني الذي يُحذِّرُ منه بعض الباحثين، ويدعون إلى التحكُّم فيه، وإنما المشكلة تكمن في ضعف الإستراتيجيات الاستباقية للمشكلات التي قد تنشأ عن الزيادة السكانية في المدن، ويشهد لذلك أن الكثافة السكانية بإفريقيا جنوب الصحراء لا تتجاوز (٢٩/كم٢)، أي ٢٩ فرداً في كلّ كيلومتر مربع، وهذا لا يُمثل إلاَّ واحداً في العشرة مقارنةً بالكثافة السكانية بجنوب شرق آسيا مثلاً[٦].

أخيراً؛ لا نعدم بإفريقيا بعض المحاولات النموذجية المحمودة لمعالجة هشاشة المدن وجَعْلها أكثر صموداً، منها حالة كيغالي (عاصمة رواندا) مثلاً؛ حيث تدنَّت مؤشرات العنف ومظاهر الهشاشة بشكلٍ ملاحظٍ بعد تطوير الأحياء العشوائية، وتوفير الإنارة في جميع أرجاء المدينة، ووسائل النقل الجماعي، والصرف الصحي، وغيرها من صُوَر توفير الأمن الحضري[٧] ■

(١) Fabrizio Ago. 1982. "Habitat Villageois en Afrique Noire", Africa, 37, No. 3, 354-362 (360).

(٢) African Urban Spaces, 6.

(٣) التنبكتي، محمود كعت، ٢٠١٤م، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش، دراسة وتعليق: آدم بمبا، بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، ص٢٩٥.

(٤) المصدر السابق، ص١٨٠.

(٥) Jan, Jansen, 2005. Spatial Factor in African History, Brill Academic Publishers, 273.

(٦) The World Bank. 2008. World Development Report 2008: Agriculture for Development, 55.

(٧) D. Dudson, Op. Cit., 11.